حبيس بحيرة قَدَس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

اما الاب يوحنا ذاك الشيخ البار فاجاب واحيل قائلًا :

— اعلمي ايتها السيدة الشريفة انهُ لا يعاقب احد على فضيلتهِ . فانت لا تحتملين العذاب والآلام من اجل محبَّتك بل لانك لم تكتسي هذه المحبة الكتم الكافي . وهذا يدل على كبريائك وخيلائك . فانك ترضين باحتمال العذاب والرزايا ولكنك تريدين ان يعترف لك الآخرون بهذه المزيَّة . وكل ما قاسيتهِ من الآلام الادبيَّة وكل ما رضيتِ ببذلهِ من الضحايا لم تطلبي فيهِ غير نفسك . فاكتسي اذًا محبَّتكِ لا على شقيقتك وحدها بل على رجلك ايضًا . وافعلي ذلك حتى في سرِّك وباطنك اذا خلوتِ لنفسك

— ألم افعل ما ذكرت ؟ وهل من الواجب ان أبالغ ايضًا في محو شأني ونسيان ذاتي . قلْ أطعْ

— لقد جهلتِ الغرض من نصائحي وغلطتِ كل الغلط بما تظاهرت بهِ من البساطة التي لم تكن في محلها وايضًا بطلبك العزلة والانفراد . ألا تدرين انك لو وُجِّهت رجلكِ في وجههِ على عدم مبالاتهِ بامركِ لم يكن ذلك اشد ولا انكى من هذا التصرُّف الملتوي . فمن الآن فصاعدًا كوني الآمرة الناهية على عينيكِ ومحيَّاكِ وقلبكِ حتى لا تبوح بشيء مما تشعرين بهِ في باطنك . كوني حجرًا اذا استطعت او بالحري كوني بسيطة لكن ببساطةٍ طبيعيَّة خالية من التكلف كما لو لم يكن شيء مما لا ترضينه . فهل تشعرين من نفسك قدرة على البلوغ الى هذا الحد ؟

— لا اقوى اصلًا على ان اتظاهر بعدم المبالاة امام زوجي . وكيف يمكني ذلك وانا اعبدهُ عبادة ولا اتنفس ولا اعيش الَّا من اجلهِ ؟

— اذهبي واطيعي ثم عودي اليَّ فاخبريني انجحتِ ام لا ؟

وكانت الكبرياء مع الغضب والألم الكاوي تثير في باطن تلك المرأة التعيسة انواعًا من الاشجان والاحزان . ولم يكن احد من قبل قد تجرَّأ على تقريعها لما اتصفت بهِ

من الصلف والخيلاء. فاوشكت ان تتمزّق غيظاً من كلام الاب يوحنا غير انهـا لمّا تأملت في براءته وكيف انهُ يحتمل الحبس والنفي ظلماً وعدواناً من غير شكوى ولا تذمّر فهمت اخيراً انهُ اذا حقّ لاحد ان يخاطبها بمثل ما خاطبها به فانما هو وحدهُ يحقّ لهُ ذلك

وكانت عارفة بما جرى في قصر القليعة وكيف وقف الاب يوحنا امام اولئك القضاة الجائرين ولم يُجِر جواباً على ما عزوا اليهِ من الجرائم الموهومة بل انهُ اقتداء بمعلمهِ الالهي لزم السكوت ممارساً ما يقضي بهِ نسيان الذات. فبعد هذه الافكار التي جالت في خاطرها التفتت الى ذاك الرجل البار وقالت لهُ بصوت خنقتـهُ العبرة: أطيعك ايضاً هذه المرّة يا ابي فبارِكني وصلِّ من اجلي

وكان قد خالط قابها شيء من العزاء. خفّفا قليلاً وطأة ما بها من الاشجان والمرارة فركبت القارب مع خادمها وسافرت خفيةً كما كانت قد اتت.

٩

وكانت راحيـل تخشى مع تنكرها الخارجي ان يعرفها احد في الطريق فاجتنابًا لهذا الخطور امرت خادمها موسى ان يسير بهـا في طرق غير مسلوكة جنوبي « الوعر » حتى اذا انتهيا قريباً من المطرية جازا ناحية الهرمل عرضاً ثمّ وادي بريسا ثم مرج عجين الذي كان قد تغطّى بما وقع من الثلوج البكيرة واخيراً دخلا غابة الصنيبة. ولحسن الحظ لم يصادفا في كل الطريق احداً يعرفهما سوى نفر قليل من المتاولة والنصيريّة كانوا اذا شاهدوا الخيّالين شاكي السلاح يقتصرون على تحيّتهما ويتركونهما ذاهبين في سبيلهما بسلام

امّا سفرهما فكان متعباً شاقاً وكان التعب قد نهكهما كما نهك زاملتيهما ولمّا اشرفا على سور البترون ومنازلها وجاوزا وجه الحجر والقبة ووصلا الى سفح الرابية التي تشيّدت فوقها كنيسة « سان سابور (١) » ثارت زوبعة مخيفة وسقط المطر سيولاً يصحبهُ بَرَد كبير الحجم كان يصيب وجوه الخيل فيزجرها عن المسير. فبعد ان عانيا ما لا يقدَّر من المشقة عثرا اخيراً على مجاز عبرا عليهِ نهر الجوز الذي كانت قد تعاظمت مياههُ بما سقط من الامطار في الايام السالفة. ثم انهما جدّا في المسير حتى انتهيا الى قصر البترون

(١) المشرق ٤: ٥٤٠

بعد ان سدل الليل حجاب الظلمة فدخلت راحيل من الباب الكبير وهمّت بان تنساب الى غرفتها غير انَّ رجلًا طويل القامة وقف في طريقها. وكان ذاك الرجل زوجها زين الذي عاد قبل يوم من الوقت الذي توقعتهُ. فلمَّا شاهدها قال لها بلهجة المتهكم:

ما احسن المرأة التي تغتنم غياب زوجها فتترك بيتها وطفلها للتجوُّل حيث شاءت وارادت. واني لاعلم حق العلم انك مولعة من زمان طويل بركوب الخيل ولكني لم اكن عارفًا ان الجولان في الليل تحت الامطار وفي اوقات الزوابع الشديدة يعجبك ويسرّك

وبما ان راحيل لم تكن لتستطيع كتم ما اصابها من الاضطراب والحيرة تم زين كلامهُ مريدًا ان يستهزئ بما وقعت فيهِ من الارتباك فقال:

لا ريب انك ما كنتِ تنتظرين عودتي بمثل هذه السرعة غير اني لستُ بآسف على تعجيل رجوعي الذي يسَّر لي تحقيق ما شاهدتهُ منك. وبعد هذا وهذا أتحبين ان تذكري لي السبب الموجب الذي اضطرَّك الى الخروج في هذه الساعة ؟

ولمَّا كانت راحيل قد صارت اشبه شيء بشخص ميت لشدة ما اصابها من الارتباك والخوف لم تحر جوابًا على سؤال زين. فانها كانت من عزَّة النفس وشرف المبادئ في اعلى منزلة ولذلك كان يشق عليها ان تكذب او تلجأ الى مخرج ينجيها من لواذع الملامة. ولا يخفى ان المخارج والحيل كثيرًا ما يستعملها النساس ويحسبونها خالية من طائلة الشين والعيب اذا لم توقع ضررًا باحد وتخلص صاحبها من الشروح التي قد تجرّ عليهِ وبالًا. الَّا ان راحيل كانت ترى انَّ اخفَّ زيغ عن الصدق هو كذب فظيع لا يليق بشخص من أولي الشرف مهما كانت المنافع التي تتأتى عنهُ والاضرار التي يمتنع حصولها بسببهِ. وقد رأت انها اذا حكمت الصدق باجنها الحال ان توضح لرجلها سرائر قلبها وما تقاسيه في باطنها من الاوجاع والآلام بسبب محبتها ولكن ذلك يوجب عليها مخالفة نصائح الاب يوحنَّا الذي اشار عليها بان تكتم محبتها . . وبناء عليهِ فضلت السكوت على الجواب

امَّا زين فلمَّا لم يسمع منها جوابًا على كلّ ما تقدم من كلامهِ قال لها بلهجة جافية :

لا وجه لكل هذا الخوف الذي اعتراكِ فاني اجل كثيرًا سليلة آل لبرياك ولا استطيع ان اتوهم فيها سوءًا . ولكن ارى من واجباتي تحريضك على ان لا تتوغلي في التجوال الى اماكن بعيدة وتأملي قليلًا في ما تطلبهُ منكِ حالتك النسائيَّة ومنزلتك

امَّا راحيل فانهـا ما برحت ملازمةً للصمت . ومع انهُ لم تتيسَّر لها ساعة اوفق من تلك الساعة حتى توضح لزوجها فرط حبهـا لهُ وما تتكبدهُ من المرارة في سبيلهِ بقيت صامتةً وقبلت بطواعية وطيبة خاطر هذا الكلام القارص الذي لم تكن تستحقهُ

غير انها بعد ذلك لما دخلت غرفتها وتمدَّدت على فراشها شعرت ببهول موقفهـا وعظيم شدتهِ فما كان اشبهها بالمسافر الذي نجا من السقوط في هوَّة عميقة فاذا وصل الى منزلهِ تمثَّل لهُ الخطر الذي تعرض لهُ وكاد يودي بحياتهِ فيشتغل عليهِ الافتكار بهِ اكثر من ساعة تعرُّضهِ لهُ

ومن ثم باتت راحيـل بليلة اللموع تتقلب على فراش دون ان يغمض لها جفن وادركت حرج المركز الذي صارت اليهِ . والحقُّ يقال ان زينًا كان يكفيه ان يقول كلمة ليردَّها الى حيث اتت . وكان في امكانهِ ان يفعل ذلك دون ملامة وفقًا لعادات ذاك الزمان التي كان معمولًا بها وتتنذٍ مثل سنَّة وشريعة مبرمة لاسيما وان الاغنياء المقتدرين لم يكونوا يتوقفون عن اتبـاع كل عادة شأنها معاونة الاهواء البشريَّة على قضاء مآربها (١ . ولكن مقدَّم البترون كان رجلًا شريف المبادئ وفوق كل ذلك متمسكًا بديانتهِ المسيحيَّة كل التمسك فبناء عليهِ كان مضطرًا ان يوفق بين الراي العام واحكام ضميره . ولكنهُ كان يستطيع بسهولة ان يقتدي بكثيرين من الاشراف من ذوي طبقتهِ ويبرِّر نفسهُ بقولهِ انهُ شاهد امرأتهُ خارجة من بيتهـا في ساعة من الليل لم تكن تسوغ لها الخروج . وبناء عليهِ كان مركز راحيل حرجًا جدًّا ولذلك صمتت من شدة خوفهـا ولم تجسر ان تنطق بكلمة تعتذر بها عن نفسها

ولو ان زينًا سرَّحها لما امكنها ان تجد منزلًا تأوي اليهِ لان أسرتهـا كانت قد انقرضت ثم ان شقيقها موسى ارشيديا كون انطاكية كان قد سافر من زمان طويل الى رومية في مهمَّـة خصوصيَّة (٢ وهذا هو السبب الذي من اجلهِ جاءت شقيقتها

---

١) داندني ٢) المشرق ١

حنَّة الى البترون واقامت في منزل زوجها وجرى ما ذكرنا من شغف زين بها

ثم انضافت الخيبة الى خوفها الطبيعي فتصورت انها ستصير ضالَّة تائهة لا مأوى لها ترجع اليهِ ولا املاك تنتفع بريعها وتلتزم ان تعيش بين الاجانب وهي رازحة تحت ثقل تهمة شائنة . ويا لله كم من مرَّة همت في ذاك الليل الطويل ان تهبَّ من فراشها وتذهب الى زوجها فتعترف لهُ بكل شيء . ولكنها رأت ان ذلك إخلاف بوعد الطاعة الذي وعدت بهِ حبيس البحيرة فابت عزَّة نفسها ان تخلف الوعد وآثرت مقاومة الخاوف والصبر على المكاره

١٠

غير ان صبرها عاد عليها وبالًا لان ما عانتهُ من التاثيرات الادبيَّة والاتعاب البدنيَّة ما لبث ان اوهن بنيتها وهدَّ جسمها فعجز عن المقاومة والجلَد واخذتها حمى شديدة كادت تذهب بحياتها حتى مست الحاجة الى استدعاء طبيب من مدينة طرابلس لمداواتها

وكان الطب في العالم العربي اثناء القرن الخامس عشر قد اصابهُ ما اصاب سائر العلوم من الانحطاط والضعة فكان الاطباء السوريون في ذلك العهد لا يعرفون الَّا شيئاً يسيرًا من خصائص بعض الاعشاب والنباتات وقليلًا من المعلومات الكيموية التي كثيرًا ما يمزجونها بعقائد خرافيَّة ومضادة لاصول العلم . غير انهم كانوا في اكثر الاحيان يعتمدون في مزاولة مهنتهم على كنوز المعارف والمراقبات التي خلفها لهم سلفاؤهم . وقد وصلت الينا تآليف اثني عشر منهم وهي جميعها مشحونة بالسفاسف وجلّ ما تتضمَّنهُ اوصاف دوائيَّة سداها الخرافة ولحمتها التدجيل (١)

واما في ايامنا فقد اختلفت حالة الطب كل الاختلاف وتشاغل الاطبَّاء في البحث عن المكروبات الضارة والنافعة وعن فوائد الكهربائيَّة والنور في المعالجة فهم يريدون في وقت واحد ان يكونوا كيماويين وطبيعيين وكهربائيين وغير ذلك ليكونوا اطبَّاء اي ليجتهدوا بجد واخلاص في مداواة مرضاهم وتتبُّع سَيْر عللهم وتفحُّص ادوائهم ومعاونة الطبيعة على الشفاء بدلًا من تعذيبها بتجاربهم العنيفة التي تكون في بعض الاوقات أخطر على الصحة من المرض نفسهِ

(١) راجع ليكلر تاريخ الطب العربي (٣ : ٢٦٠) والمخطوطات الطبية في مكتبتنا (المشرق ٩ : ٧٢١)

وكان الطب في الزمان الحكي عنهُ يزاولهُ خاصّةً أفراد من المسلمين واليهود . على انّ النصارى لم يكونوا ليتركوا لهم احتكار هذه المهنة . ومن الغريب ان رجال الاكليروس كانوا يمتازون على سواهم في الفنّ المذكور ولكنهُ لم يكن احد بين الطوائف النصرانيّة كلها من يتقن الطب مثل اليعاقبة ولذلك كانت لاطبّائهم سمعة طائرة وذكر بعيد (١

اما الطبيب الطرابلسي فبعد ان فحص المريضة بما لا مزيد عليهِ من التدقيق واستفهم عن مقدمات مرضها حكم اخيرًا انها مصابة بحمّى صالب قد تناولت الدماغ ايضًا مما يخشى معهُ من الخطر على حياتها . فلما كان اليوم التالي أُصيبت المريضة بانحطاط شديد رغلب عليها النعاس الّا انهُ كان متقطعًا ولكنهُ ما وافى الليل وحانت الساعة الموافقة لساعة وصولها الى البترون يوم عودتها من السفر حتى رجعت اليها الحمى شديدة محرقةً فخافت عليها شقيقتها حتة كل الخوف واستدعت المقدّم زين فقالت لهُ :

ان راحيل تخوّفني كثيرًا لانها تهذي باعلى صوتها وتعمل اشارات وحركات ترعبني ومتى اشتدّت عليها الحمى تهمّ بان تنطرح على الحضيض . . . فلا اجترئ على البقاء عندها وحدي . ثم اني من وجه آخر — قالت هذا وقد صبغت حمرة الخجل خدّيها — استنكف من وجود شخص غريب هنا يسمع ما تنطق بهِ من الهذيان متى اشتدّت عليها التوبة

ومن ذاك الوقت اتفق الاثنان ان يجتمعا عند فراش المريضة معًا للسهر عليها كلما ثقلت عليها وطأة الحمّى . وكان قبول زين بملاحظة قرينتهِ والانتباه اليها في مرضها من شأنهِ ان يُعيد الى الزوجين ذاك الحب الذي تقلّص ظلّهُ بينهما من زمان طويل لانه بالرغم عن الفتور المقصود من زين والاحتراز الذي تعمدتهُ راحيل كانت الساعات التي تنقضي ورأسهُ الى رأسها والانسنة التي يتبادلانها عن ارتفاع الحمى او هبوطها تقرّب ذينك القلبَين وتُدنيهما ممزّقةً بعض ما كان فيهِ من الضنك والاتزعاج

وكان زين يقوم بما تستلزمهُ العناية بقرينتهِ بغاية الاقبال والقبول اللذين يمتنع ان لا يجدا تأثيرهما في قلب مستقيم وحسّاس كقلب راحيل . ولذلك كانت كلما شاهدتهُ مهتمًا براحتها يزيد اجلالها لهُ وتشعر بانجذابها الى هذا القرين الذي من غير قصد حوّلت محبّتهُ عنها

(ستأتي البقيّة)

١) راجع كتاب « راي » المدّون المستعمرات في المشرق (ص ١٨١)